الفصل الخامس

جهاده سنة (١٨٩٦م)

استمر الفقيد ماضيًا في جهاده، فحفل عام (١٨٩٦م) بمثل ما حفل به عام (١٨٩٥م) من الجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية.

خطابه إلى جلادستون في شأن الجلاء (يناير سنة ١٨٩٦م)

فكر وهو في باريس أن يواجه المستر «جلادستون» شيخ الأحرار في إنجلترا - وكان قد اعتزل الوزارة- يذكره بآرائه في الجلاء، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة (١٨٨٢م)، وأدلى بتصريحات عدة في البرلمان الإنجليزي بأن إنجلترا لا تنوي نقض عهودها في الجلاء، فأرسل إليه الخطاب الآتي تعريبه:

«باريس في ٢ يناير ١٨٩٦م

سيدي المبجل:

اسمحوا لأحد أبناء وادي النيل، لوطني لا أمنية له إلا تحير بلاده، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء، وجاهرتم مرارًا عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإن عملًا كهذا يمس شرفها أشد المساس.

لقد سجلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها جهلًا تامًّا، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن؛ أي أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء.

ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم في هذا الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا.

فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء -كما نظن ذلك- فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟

وفضلًا عن ذلك فإن تصريحًا منكم في مسألة مصر يكون له أعظم قيمة في هذه الأيام التي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام، وإني مع انتظاري الجواب على كتابي هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي».

مصطفى كامل

رد جلادستون

وقد أرسل المستر «جلادستون» إلى الفقيد على غير تعارف بينهما جوابًا رقيقًا ردًّا على كتابه، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين، فكان جوابه وثيقة هامة في المسألة المصرية سجلت على إنجلترا مركزها غير المشروع في مصر، كما سجلت لمصر حقها في الجلاء، وهذا تعريب الخطاب:

«سيدي العزيز:

إني أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريًّا؛ ولكنني مجرد بالمرة من كل سلطة.

أما آرائي فإنها لم تتغير قط، وهي دائمًا أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها.

وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين.

ولما كنت في منصبي أخيرًا رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلًا إلى تسوية هذه المسألة المهمة، والسلوك الذي اتبعه مسيو وادنجتون[1] في عام

(١) سفير فرنسا في لندن وقتئذ.

(١٨٩٢م) شجع أملي؛ غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك، ولست أدري لأي سبب.

ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة (١٨٩٣م)، ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها، وقد كنت مستعدًّا لعمل كل ما هو حسن في سبيل إعطاء آرائي تأثيرها، إلا أنني تركت المنصب بالمرة، ولست الآن إلا أحد أبناء بلادي الخصوصيين، وإني أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق».

بيارتز، في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦م

و. جلادستون

كان لخطاب «مصطفى» ورد «جلادستون» دوي كبير في الدوائر السياسية؛ إذ جاء حجة على إنجلترا في إخلافها عهودها في الجلاء، وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الإنجليز، الذي وقع الاحتلال في عهد وزارته، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال، فكان الرد انتصارًا كبيرًا لجهاد مصطفى كامل، وقد تناولت الصحف الأوربية الخطابين بالتعليق، وعلا شأن الفقيد إذ ظهر في أوربا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها.

نشرت جريدة (الإكلير) الفرنسية في عدد (٣ فبراير سنة ١٨٩٦م) مقالة للمسيو «ألفونس همبير» نائب باريس في مجلس نواب فرنسا، قال فيها:

«تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلادستون، ومصطفى كامل هو شاب مصري متعلق أشد التعلق بتحرير بلاده، وقد أقام في باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادي النيل، وأتى على خلاصة الخطابين.

وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالًا جاء فيه:

«لقد أصبح المستر جلادستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما ينادي بذلك، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سلسبري (رئيس الوزارة البريطانية) في المفاوضات الجارية دائمًا في شأن الجلاء عن مصر، فقد كتب إلى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصري مصطفى كامل يذكره بآرائه القديمة التي كان مغزاها دائمًا أنه لا حل للمسألة المصرية إلا بالجلاء».

وكتبت الصحف الأخرى في فرنسا وأوربا المقالات الضافية عن الخطابين والتعليق عليهما، ونوهت بفضل مصطفى كامل في الحصول على هذه الحجة القوية من شيخ الأحرار الإنجليز ضد الاحتلال، وصار اسم الفقيد في الصحف الأوربية علمًا على الحركة الوطنية المصرية.

خطابه الثاني إلى جلادستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلادستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ سنين، ويطلب إليه أن يعمل على تحقيق ما وعد، فأرسل إليه الكتاب الآتي -وقد بعث به إليه بعد عودته إلى مصر-:

«مصر في ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦م

أيها السيد المبجل:

اعذرني إذا كنت أكتب إليك مرة ثانية، فإن عددًا عظيمًا من أبناء وطني لما رأوا «أن زمن الجلاء على ما ترى قد حان منذ سنين» كلفوني أن أرجوك التكرم على مصر بإحداث حركة في الرأي العام الإنجليزي لمصلحة الجلاء.

وإن الحركة الكبيرة العديمة المثال التي أحدثتها في إنكلترا لمصلة الأرمن بعض عبارات لكم في شأنهم -حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول- لهي أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة.

وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقًا لرعايتك العالية من مسيحيي الأرمن؟ أو هل أنت كما أشاعوا في بلاد الشرق عدو للإسلام؟ ذلك ما لا نتجاسر على ظنه.

ولقد قلت في خطبتك التي ألقيتها في شهر أغسطس الماضي: إنك لا تبغض المسلمين ألبتة. فها هم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر.

ومع ذلك أفليس من الواجب على إنكلترا أن تحترم هي نفسها العهود العلنية والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصي تركيا -التي تعتبرها أقل بلاد أوربا مدنية- باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن؟

هذا وإنني أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم احترامي».

مصطفى كامل

لم يتلق المترجم من المستر جلادستون ردًّا على هذا الخطاب؛ وإنما تلقى منه كتابًا ثانيًا ردًّا على خطاب ثالث أرسله إليه في (سبتمبر سنة ١٨٩٦م) كما سيجيء بيانه.

عودته إلى مصر (يناير سنة ١٨٩٦م)

بقي المترجم في باريس يدافع عن القضية المصرية بقلمه ولسانه حتى أوائل يناير سنة (١٨٩٦م)، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه في جهاده، فبقي على وده لها طول حياته، وظلت هي على إعجابها به وبوطنيته طول حياتها، وقد أبحر من مرسيليا قاصدًا مصر، فوصل الإسكندرية يوم (١٤ يناير سنة ١٨٩٦م).

كتابه إلى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث إليها في (٩ يناير سنة ١٨٩٦م) بكتاب من مرسيليا يدل على مبلغ تقديره لما أسدته إليه من المعونة الأدبية، قال فيه:

«سيدتي المديرة المبجلة:

قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادي عن جزيل الثناء على المساعدة النفيسة جدًّا، تلك المساعدة التي أوليتني إياها، وإنه لواجب واجب الأداء أن أشكر بكل إخلاص عملك العظيم لوطني التعس الحزين ولشخصي المتواضع، ولا شيء يؤلمني أكثر من عجزي في الكلمات، ولولا ذلك لكنت أصف لك مقدار التأثير الذي وقع في نفسي من حسن لقائك إياي وما نلته من هذه المقابلة، وبالجملة فإنك أعلم بشعوري نحوك.

بعد ساعة أبرح فرنسا حاملًا تذكارًا متين الدعائم، وأملي أن أعود إليها بعد أن أتمم عملي في مصر، وإني أعتمد دائمًا عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة.

وأرجو منك أن تتكرمي بقبول أجل إكبار وأعظم اعتبار من يعترف لك بالجميل».

مصطفى كامل

أول خطبة وطنية له بالإسكندرية (٣ مارس سنة ١٨٩٦م)

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر عقب جهاده في أوربا سنة (١٨٩٥م)، اتجهت إليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية في قلوبهم، وتردد صدى خطبه ومقالاته في أرجاء البلاد، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر البلاد، ومناد بالجلاء، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى في مدينة الإسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة، ولعله اختار إلقائها هناك لما كان يأنسه في أهلها من الحماسة والوطنية.

ذهب المترجم إلى الإسكندرية يوم (٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦م) لإلقاء خطبته، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنشية، ولكن صديقه إسماعيل بك شيمي، وكان وقتئذ قاضيًا

بمحكمة الإسكندرية المختلطة، أبى إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطئ البحر (بجهة الأنفوشي)، فقبل الدعوة، ونزل ضيفًا كريمًا بداره، وما أن علم أعيان الإسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون على دار شيمي بك ليظهروا للفقيد إعجابهم به، وتقديرهم لجهاده في سبيل مصر، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله، فكانت الدار مدة إقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس في المسرح العباسي، وكان الاجتماع حافلًا بالمستمعين من صفو القوم، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب، وكان الزحام شديدًا إذا لم يبق مكان في التياترو خاليًا وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم في الاستقلال والمطالبة بالجلاء واستثارة روح الكرامة والأمل في قلوبهم، وقد طب الخطيب من الحاضرين في نهاية خطبته أن يقروا نداءه بالجلاء برفع أيديهم، فأقروا بالإجماع نداءه، فكانت مظاهرة قومية رائعة.

قال «المؤيد» في وصف الاجتماع[1]: «وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشائقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن إلقائه وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله، وقال أيضًا: «إنها الخطبة الأولى التي أقدم على إلقائها شاب مصري غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفاني في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عامًا».

وأطنبت جريدة (الفارد الكسندري) التي تصدر بالثغر في مدح الخطيب، ونوهت بفضله في تأليف قلوب الوطنيين والنزلاء، قالت: «وهو الأمر الذي كان له أحسن وقع في النفوس الحرة لا سيما من شاب لا يتجاوز عمره اثنتين وعشرين سنة قام نائبًا عن أبناء وطنه في الدفاع عن حقوقهم».

(١) عدد ٤ مارس سنة (١٨٩٦م).

كان لخطبة المترجم دوي عظيم في الإسكندرية، تردد صداه في أرجاء مصر، وظهر تأثيرها في نفوس الإسكندريين يوم عودته إلى العاصمة، فكان توديعه بمحطة الإسكندرية مظاهرة وطنية؛ إذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الإسكندريين وفي مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم.

هدية الثغر إلى المترجم

وقدموا له وسامًا من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصري ومسلة الثغر، وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة:

برهان الإخلاص من أهالي الإسكندرية (للوطني الغيور مصطفى كامل)

فتقبل الهدية شاكرًا، وأمطرت عليه باقات الأزهار والرياحين، وما كاد القطار يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الإخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرًا.

كتاب المترجم إلى أهالي الإسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التي لقيها من أهالي الإسكندرية في نفسه تأثيرًا كبيرًا، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعدادًا لقبولها، فنشر في المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتلبيتهم داعي الوطنية، قال:

«إلى أهالي الإسكندرية

أبناء وطني الأعزاء

يعجز قلمي ولسان أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوي من العواطف الشريفة، وما أبديتموه لي من علامات الود والإكرام، ولولا أني معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز، لكنت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور.

وإن الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة «٣ مارس» الشريفة التي أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية، وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حقَّ قدرها، وتعرفون مزية السكينة والاعتدال في خدمة الأوطان، فاعملوا دائمًا بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والإقبال.

وما مثلي أمامكم ومثلنا جميعًا أمام الوطن العزيز إلا كمثل رجل وجد أُمَّه عليلة سقيمة، فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها، فقام مناديًا إخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعًا يحسون نفس إحساسه ويشعرون شعوره، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة.

فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته».

مصر في ١٠ مارس سنة ١٨٩٦م

مصطفى كامل

اضطهاد الإنجليز شقيقه

نقم الإنجليز من الفقيد مجاهدته إياهم في أوربا؛ لأن الدعاية في الخارج تزعزع مركزهم المعنوي الذي يعتمدون عليه كثيرًا في تثبيت سلطانهم في مصر، وقد غضبوا عليه لحملاته عليهم في الصحف الأوربية عام (١٨٩٥م)، وبدأ أثر هذا الغضب في معاملتهم لشقيقه علي (بك) فهمي كامل، وكان وقتئذ ضابطًا بالجيش المصري بالأورطة الأولى من المشاة المرابطة بسواكن، فتشدد رؤساؤه الإنجليز في معاملته؛ فقدَّم استقالته من خدمة الجيش في (أكتوبر سنة ١٨٩٥م)، ولكن قومندان الأورطة الإنجليزي رفض استقالته وطلب إليه استردادها متهددًا متوعدًا، فاسترد (علي بك) الاستقالة، ثم صدر الأمر بإحالته إلى الاستيداع في شهر نوفمبر، وسافر إلى مصر فوصلها في (٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥م).

وقد رافق (علي بك) شقيقه حين خطب بالإسكندرية، ولما عاد معه إلى العاصمة قدم استقالته من الجيش في (مارس سنة ١٨٩٦م)، ليكون بجانب أخيه في ميدان الجهاد، وكان الإنجليز قد ساءهم النجاح الذي لقيه المترجم في خطبته، والحفاوة التي قوبل بها في الإسكندرية، فاعتزموا أن ينتقموا منه في شخص أخيه، فاعتبروا استقالته من الجيش في الوقت الذي كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة مخالفة للواجب العسكري تستوجب محاكمته، ومع أنه حين علم بنبأ هذه الحملة استرد استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية، وألحق فعلًا بالأورطة الخامسة عشرة، فإن وزارة الحربية أمرت بوقفه، واعتقاله ومحاكمته، وحوكم على الفور أمام مجلس عسكري، فقضى بتجريده من رتبته العسكرية (وكان ملازمًا أول)، وتنزيله إلى درجة (نفر)، أي جندي بسيط، ونزعوا عنه علامة هذه الرتبة، وساروا به إلى الثكنة التي بها أورطته (بالعباسية)، فقوبل هذا الظلم بالألم الشديد من زملائه الضباط، وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه، فشكرهم على إحساسهم، ونصح لهم أن يتبعوا الحكمة والروية، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وقد أودع السجن، وعومل بغلظة وشدة، وألحق (نفرًا) بتجريدة دنقلة، فكان ذلك منتهى العسف والتنكيل، وحضر واقعة (فاركة) وواقعة (الحفير) وهو جندي بسيط.

كان لهذا الظلم الصارخ أثر سيئ في النفوس؛ وبخاصة بعد أن تناقلت الصحف والألسنة تفاصيله، وانتقل صداه إلى الصحف الخارجية، واستفاضت الأنباء بأن المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل.

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية، فطلب مقابلة الخديوي ليرفع إليه ظلامته من هذا الاضطهاد، فأجيب إلى طلبه وقابل الخديوي لهذا الغرض يوم الخميس (٩ يولية سنة ١٨٩٦م)، فكان لهذه المقابلة ضجة في المحافل السياسية – وبخاصة الإنجليزية– لأن الإنجليز عدوا مقابلة الخديوي لزعيم حركة الجلاء

مظاهرة ضد الاحتلال، وقابل اللورد كرومر الخديوي في هذا الشأن، وأظهر له استياء الدوائر الإنجليزية من استقباله مصطفى كامل، فأجابه الخديوي أنه ككل المصريين له الحق في أن يشكو إليه مظلمته.

وأخيرًا صدر العفو عن (علي بك) في (أغسطس سنة ١٨٩٦م)، وقد استاء اللورد «كتشنر» سردار الجيش المصري وقتئذ من أمر العفو، فلم ينفذه إلا في أكتوبر؛ أي بعد شهرين من صدوره.

خطبته بالفرنسية في الإسكندرية (١٣ إبريل سنة ١٨٩٦م)

لم يجزع مصطفى لاضطهاد شقيقه، وكان الظن أنه يتراجع خوفًا عليه؛ ولكنه ألقى وأخوه يتلظى في محنته خطبةً دلَّت على أنه مهما حورب في شخصه أو شخص أقرب الناس إليه، فلا يحول حائل دون جهاده؛ ذلك أنه في (إبريل سنة ١٨٩٦م) طلب منه لفيف من الأوربيين المقيمين بمصر أن يلقي خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الأجنبية، فلبى الدعوة، وألقى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية يوم (١٣ إبريل) خطبة بالفرنسية، كانت فوزًا كبيرًا له وللقضية الوطنية، فقد ازدحم المسرح بالحاضرين، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفي الأجناس رجالًا ونساء، ومنهم بعض الإنجليز، وفي مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الذين يعرفون اللغات الأجنبية، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة، وصوت رنان، ولقد جاهر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده، وسيظل مدافعًا عن وطنه طول حياته، واستمر يخطب ساعة ونصفًا، كان في خلالها يقابل بالتصفيق والاستحسان والإعجاب، مما دلَّ على مبلغ تأثيره في نفوس السامعين، ومعظمهم من الأوربيين.

وكان الموقف يدعو حقًّا للإعجاب؛ لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقي فيها خطيب مصري على جمع من الأوربيين في مصر خطبة بلغة أوربية، مدافعًا عن

القضية الوطنية، مناديًا بالجلاء، وقد ظهر هذا الإعجاب فيما كتبته الصحف الأوربية عن الاجتماع؛ قالت جريدة (الفارد الكسندري): «عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلًا على حبهم له وتأييدهم لخطته؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع في الفرنسية، وبأسلوب خطابي، وصوت جهوري، مما أثر تأثيرًا قويًّا في السامعين». وقالت جريدة (الريفورم): «إن هذا الجهاد الذي يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبي عنه، دون أن يمل سامعوه، ودون أن يستعمل ألفاظًا نابية عن الذوق وبرعاية وتحفظ تامين، ومن البديهي أن الذي يبلغ درجة كهذه لا بد أن يكون له شأن كبير، ولقد سمعت بنفسي خصومًا مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته».

مجموعة أعمال المترجم في عام

حفل عام (١٨٩٥-١٨٩٦م) بما رأيت من جلائل الأعمال والجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية، وقد فكر بعض أصدقائه في طبع مجموعة أعماله في ذلك العام؛ تخليدًا وتكريمًا لجهاده؛ فنشر الأستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الإنجليزي) ومهد لها بمقدمة بليغة تدل على المكانة التي نالها مصطفى كامل في النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية.

ظهرت هذه المجموعة في (مايو سنة ١٨٩٦م)، وانتشرت انتشارًا كبيرًا، وأقبل الناس على اقتنائها إقبالًا عظيمًا، وإنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الأستاذ مسعود بك؛ لأنها تحتوي على وصف لشخصية مصطفى كامل في بداية حياته الوطنية الكبرى، قال: «نبغ هذا الهمام من مدارس مصر، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة في فرنسا، حتى نال الشهادة الناطقة بفضلة وقوة إدراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه، وقد كان كافة أساتذته وأقرانه يعترفون له بهذه

النعوت الكاملة، وبها وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق، حتى يستميل إليه القلوب النافرة، ويرد الأهواء الشاردة».

إلى أن قال: «يعترف القارئ المنصف اعترافًا لا تشوبه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهذه الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذي ينبغي أن يكافئه كل وطني بالاقتداء به وسلوك منهجه القويم، وما هذا المنهج القويم؟ هو صراط مستقيم يهتدي إليه كل من اجتمعت فيه مزية الإقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة، فإن هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الإنسان التوفيق بتوافرهما فيه، أوصلتاه إلى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية، وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات». إلى أن قال: «علم مما سلف أن الإقدام والوطنية الصادقة شرطان لازمان للمصريين؛ إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربقة الاستعباد، فخلدوا في تاريخ أممهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة، وتركوا للأعقاب أثرًا جميلًا ومثلًا يقتدون به، ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم وخطيبهم المصقع من منزلة في تاريخ كمنزلة أولئك العظماء في تواريخ بلادهم، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ، وربما كان عملهم في المبدأ لم يصادف من النجح والفوز ما صادفه مصطفى كامل في فاتحة أعماله الجليلة التي نقدمها للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية في عامه السياسي الأول»[1].

استئناف الجهاد في أوربا (أغسطس سنة ١٨٩٦– نوفمبر سنة ١٨٩٦م)

أبحر المترجم من الإسكندرية يوم (السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦م) قاصدًا فرنسا ليستأنف جهاده في أوربا، فودعه على رصيف الميناء جمعٌ كبير من ذوي

(١) كتاب «مصر والاحتلال الإنجليزي» أو مجموعة أعمال مصطفى كامل مدة عام (من مايو ١٨٩٥م إلى مايو سنة ١٨٩٦م) ص٤.

المكانة، وقدم له الوطنيون الإسكندريون باقات الأزهار، داعين له بالنجاح في جهاده[١]، وما أن وصل إلى باريس حتى بادر إلى العمل والجهاد في سبيل مصر.

فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثًا بتاريخ (٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦م) عن الحركة الوطنية، قال فيه: «إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر، وقد علمنا الآن حق العلم أن إنجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطاني للوصول إلى غايتها في مصر، وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها، وإنه إذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتًا تامًّا وصابرة صبرًا جميلًا، فإني لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين».

ذكرى (١٤ سبتمبر)

وانتهز المترجم يوم (١٤ سبتمبر) وهو ذكرى احتلال الإنجليز عاصمة البلاد في سنة (١٨٨٢م)، فنشر في جريدة (الإكلير) الفرنسية بعدد (١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦م) حديثًا ضمنه التنويه بهذه الذكرى، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها: «أي تذكار محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة؟».

(١) جاء في «المؤيد» عدد ٢ أغسطس سنة (١٨٩٦م) ما يأتي: «كان من جملة الذين بارحوا ثغر الإسكندرية أمس إلى أوربا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطني البليغ مصطفى أفندي كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه وإخوانه، كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضي على محطة القاهرة، رافقته السلامة والنجاح أينما توجه».

مصطفى كامل في الثالثة والعشرين من عمره

«لقد مضى على مصر أربعة عشر عامًا وهي مقهورة ومضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بممدني العالم! وإن الإنسان عندما يفكر أن الإنجليز مضى عليهم هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان في مصر، ويحاربون أوربا والمدنية الأوربية على شواطئ نهر النيل، ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها، ويقهرون المصريين، كل ذلك ودول أوربا لم تعمل شيئًا ما ضد الاحتلال، يظن أن أوربا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم! وليس تذكار (١٤ سبتمبر) تذكار حداد للأمة المصرية فقط؛ بل هو أيضًا -وأسمح لنفسي أن أقول ذلك- تذكار عار وخجل على سياسة أوربا ومدنيتها عامة، وعلى فرنسا خاصة».

خطاب ثالث إلى جلادستون

كانت المسألة الأرمنية في صيف سنة (١٨٩٦) مثار الأحاديث في الصحف الأوربية والدوائر السياسية، وكانت الصحف الأوربية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة، وكان المستر جلادستون من أشد السياسيين انتصارًا لهم، فكتب المترجم من باريس خطابًا ثالثًا نوَّه فيه بخطابه الثاني الذي لم يتلق عنه ردًّا، وألمع إلى دفاع المستر جلادستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية، وسكوته عن المسألة المصرية، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الإنجليزية، ونقضها لعهودها في الجلاء، وأعرب عن أمله في أن يكون عادلًا في موقفه حيال المسألة المصرية، وهذا تعريب خطابه:

«باريس في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦م

أيها السيد المبجل:

«إن الذي يخاطبكم اليوم هو مصري تشرف من قبل بمراسلتكم، ولما شرفتموني في شهر يناير الماضي بجوابكم الذي صرحتم فيه «أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام» كتبت إليكم راجيًا باسم الإنسانية والشرف البريطاني أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات بمصر يجب احترامها، فلم يصلني جواب ما، وحسبت أن رجائي لم يؤثر أي تأثير في روحكم الشريفة الكريمة.

واليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميلون إلا إلى المسيحيين من بني الإنسان، أو ليس لنا حق كذلك -نحن معشر المصريين المسلمين- في دعواكم المؤثرة ونداءكم القوي؟ أما أنا فأظن ذلك، وخصوصًا لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقد؛ بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها.

وإن اليوم الذي تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن، إنما هو تحيز للمسيحية ودفاع عنها لا عن الإنسانية، وعلى هذا أؤمل أن تعيروا رجائي التفاتكم ورعايتكم، ومع انتظاري لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتباري وعظيم احترامي».

مصطفى كامل

رد جلادستون

فأجابه المستر جلادستون بالكتاب الآتي تعريبه:

«السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦م

سيدي العزيز:

إني لا أظن أنه قد وصلني منكم كتاب من غير أن أجيب عنه، أما إحساسي ورأيي في مسألة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما لجناب المسيو «وادنجتون» سفير فرنسا في لندن إذ ذاك؛ إذ قلت له: إن حكومة سنة (١٨٩٢م) (أي الحكومة الإنجليزية التي كان يرأسها مستر جلادستون نفسه) مستعدة للمناقشة في هذه المسألة، ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أي جواب مدة وجودي في الحكومة، والآن باعتباري أحد الأفراد أراني مجردًا من كل سلطة تبيح لي التدخل في هذه المسألة.

وفي الختام أتشرف بأن أكون لكم العظيم الإخلاص الخاضع».

و. جلادستون

كان لهذين الكتابين صداهما في الصحف؛ إذ اتخذت منهما مادة لمناقشة المسألة المصرية وإلزام السياسة البريطانية الحجة.

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالًا جاء فيه ما يأتي: «إن المستر جلادستون الذي كتب أخيرًا كتابًا يدعو فيه الأمة الفرنسية إلى التظاهر بغيرة أشد مما هي عليه انتصارًا لمسيحيي الأرمن دعاه بدوره رجل مصري للدفاع عن أمة أخرى مقهورة؛ وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصري الوطني كتب إليه كتابًا يقول فيه: إنه يجدر بشيخوخته النشيطة أن تعمل لتحرير مصر وردها إلى أهلها من أيدي الإنجليز محتليها بلا حق، وإن تكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الأرمنية طريفة أكثر مما هي صحيحة، ولقد أجاب المستر جلادستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الأحرار سنة (١٨٩٢م) فاوض فرنسا في هذا الشأن، وأنه عرض على المسيو «وادنجتون» المباحثة في المسألة المصرية، ولكن الحكومة الفرنسية هي التي أغفلت هذا الطلب ولم تجبه، وإننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ، ولكن الخطبة التي ألقاها المستر جلادستون نفسه في البرلمان البريطاني باعتباره إذ ذاك الوزير الأول لإنجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون في هذه المسألة، ومع هذا فإذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضة ويرغب في أن تحافظ إنجلترا على عهودها وتقوم بوفائها، فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر عن نفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة ككل أفراد الإنجليز؟ نعم إن هذا القول يعد تواضعًا ممدوحًا، ولكن هل الصوت الذي ارتفع للدفاع عن الأرمن فهيج خواطر الإنجليز غير قادر على أن يقول الحقيقة في شأن مصر؟».

دعايته في ألمانيا

سافر المترجم من باريس في أكتوبر سنة (١٨٩٦م) قاصدًا برلين؛ ليرفع صوت مصر في ألمانيا ويكسب لها الأنصار، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة، ورحبت به الصحف الألمانية واستقبلته بالحفاوة، فكتبت عنه جريدة (برلينر تاجبلاط) قائلة: «وفد على برلين في هذه الأيام أكبر المشتغلين بأمر تحرير

مصر من الاحتلال الأجنبي، وهو الوطني الشهير «مصطفى كامل» الذي يكتب ويخطب في أوربا منذ عامين، دائب السير والعمل والجهاد في سبيل مشروعه الشريف، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها إلى وطنه الأسيف، ومصطفى كامل هذا، هو شاب فصيح جذاب، اجتمع به أحد محرري جريدتنا وتحادث وإياه في المسألة المصرية، وكان الحديث باللغة الفرنسية التي يتقنها كل الإتقان».

وقد نشرت الحديث، وهو دفاع مجيد عن حق مصر في الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال، وتألم المصريين منه.

ونشرت جريدة (ذي بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثًا آخر له في هذا الشأن، وقد نوه في كلا الحديثين بأن الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب؛ بل يعارض المصالح الأوربية عامة، قالت جريدة (ذي بوست) في هذا الصدد:

«لقد تكلمنا في جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجلاء عن مصر، وقلنا: إنهما من قلم الوطني المصري الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذي وهب حياته ونفيس عمره لتحرير وطنه وتحرير بلاده، ولما كان يطوف أوربا دائبًا في عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها إلى رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة، لكي يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء إنجلترا في مصر، وقد فعل ذلك في الممالك والعواصم الأخرى، إلى أن قالت: «لقد تعودنا أن نعتقد دائمًا أن نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الأغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن، ولذلك دهشنا أول الأمر إذ شاهدنا مصطفى كامل المصري المتجول في أوربا طلبًا لتحرير بلاده من نير الاحتلال الأجنبي شابًّا في غضاضة العمر، ولكن لا يلبث الإنسان هنيهة حتى ينسى أنه أمام شاب؛ بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنَّكته التجارب والسنون الطوال، ويجده محدثه فضلًا عن ذلك في كل كلمة من كلماته، شغوفًا بوطنه مملوءًا غيرة عجيبة وحبًّا للعمل الذي هو قائم به، وحركات رأسه المملوء نشاطًا وكفاية، وبريق عينيه، كل ذلك يدل على قوة إيمانه وأنه مستعد

لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل، وهو يؤدي الأحاديث بحرارة ما عهدت في غيره من رجال الشرق، ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملًا شريفًا طاهرًا، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لا بد أن تتحقق، وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جليًّا من جوابه عن هذا السؤال:

أي مهمة سياسية أنت مكلف إياها في حضورك إلى برلين؟

إني مكلف من تلقاء نفسي وبواجبي الوطني بمهمة وطنية محضة يدفعني إليها الإحساس النفساني، فإني لما فكرت في الحالة التعسة التي فيها وطني وشعرت من نفسي بأنني إنسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده، رأيت بعد التروي مع أصدقائي الوطنيين أن آتي إلى أوربا، وقد مضى عليَّ عامان وأنا مشتغل بعملي هذا مدافعًا عن قضية بلادي ضد الإنجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية، وأعظم التعهدات العلنية، ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبي الحق والعدل، وهم والحمد لله ليسوا بالقليلي العدد في أوربا، وإني أخاطب الأمم والحكومات، وسواء سمع صوتي الآن أو بعد الآن -حتى لو كان سماعه بعد موتي- فإني عامل ما عشت لأداء واجباتي نحو وطني، وأنادي كل ذوي الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لإنقاذ مصر».

في النمسا

ثم ذهب إلى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية، فوصل عاصمتها «فيينا» يوم (١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦م)[1]، وكان وهو في باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكي) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمساوي مكاتبة في صدد المسألة المصرية، أراد بها أن يجتذب النائب الكبير إلى جانب مصر، فكتب إليه كتابًا

(١) «المؤيد» عدد ٣١ أكتوبر سنة (١٨٩٦).

في (٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦م) يشبه من بعض الوجوه كتابه إلى المستر جلادستون، قال فيه:

«باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦م

جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكي:

لم أتشرف بمعرفتك من قبل؛ ولكني وطني مصري أعمل لجلاء الاحتلال الإنجليزي، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلًا حرًّا مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله، وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بحذافيرها، ليشرح لي رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء؟ وما هي السياسة التي يجب أن يتبعها التحالف الثلاثي؟

ورجائي ألا تعتبروا سؤالي هذا مملًّا أو مبهمًا؛ فإن الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء إلى مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحيانًا عن حد اللياقات، وإنكم وأنتم الذين علمتم الأمم ما هي حدود الوطنية، لا بد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا إليهم يد المعونة في سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوربا.

وتقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات».

المصري المخلص
مصطفى كامل

فأجابه النائب بويوسكي بالكتاب الآتي:

«فيينا في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦م

سيدي:

تسألني في كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضي إذا كنت نصيرًا للاحتلال أو الجلاء، فجوابًا عن هذا السؤال أقول لك: إني أفهم جدًّا أنك باعتبارك مصريًّا وطنيًّا لا بد أن تتألم لضياع استقلال بلادك، وإن كان يعزيك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الإنجليزي في مصر ليس إلا مؤقتًا، وأن إنجلترا لا تتعدى على القومية المصرية، وأن لكم استقلالًا داخليًّا تامًّا، وأن لكم أميرًا حازمًا وإدارة منتظمة. ولكن لكي تنال أمة من الأمم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خاصة، وأولى هذه الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحي بنفسها في سبيل الوطن.

وقد أرشدني التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عامًا حتى استطاعت أن تملك القوقاز، وأن فرنسا حاربت في الجزائر حربًا طويلة حتى استطاعت أن تقف مقاومة «عبد القادر» لها. ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر! ومن جهة أخرى فليس لإنجلترا في مصر غير ثلاثة آلاف جندي، مع أن للخديوي جيشًا منظمًا عدته ثلاثة عشر ألف جندي، ولديه خمسة آلاف رجل في بوليس منظم تنظيمًا عسكريًّا. فهذه الأرقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الإنجليزي!

وأنا أعتقد أن الحرب السودانية لا بد أن ترفع من شأن الجنود المصرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد -وذلك ما لا شك فيه- على استكمال الصفات الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يومًا ما.

وإنك تسألني أيضًا في كتابك عن رأيي في السياسة التي يجب أن يتبعها التحالف لثلاثي تجاه المسألة المصرية، وجوابًا عن هذا السؤال أقول لك: إني أفتكر أن المسألة المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة، بل إن سياستها تتوقف على ما تخطه إنجلترا في المستقبل.

هذا وإني أرجوك أن تتفضل بقبول عظيم احترامي ومزيد اعتباري».

جوزيف بويوسكي

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة في النمسا، وفي مقدمتهم المسيو شلومكي رئيس مجلس النواب النمساوي وكبار الصحفيين، وشرح لهم المسألة المصرية وجهاد مصر في سبيل استقلالها، فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر.

ونشرت له جريدة (اكتسر تاجبلاط) حديثًا قال فيه: «إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزي لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة؛ فضلًا عن كونه جارحًا لعزة بلادنا حسًّا ومعنى، فإننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها، ونعلم أن بلادنا ما دامت تحت النير الأجنبي وما دمنا لا ندير شئوننا بأيدينا، فلا حق لنا في أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التي لها حقوق محترمة، ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الإنجليزي».

وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال:

«لما كانت الأمة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الإنجليزي، فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين؛ سبيل الثورة والسبيل السلمي، فأما سبيل الثورة فنحن لا نريده لأننا قبل كل شيء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة، ونبغض المذابح والجرائم، ومن جهة أخرى فإن لأوربا عندنا مصالح تضر بها الثورة. وإذا كنا نحترم حقوق أوربا ومصالحها في مصر فمن المحتمل أن الأمة إذا تارت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز بين الإنجليز وغيرهم من الأوربيين، إذ تقول وقتئذ: «لقد تظاهرت أوربا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذًا العلم ضدها» – لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذي نكرهه بفطرتنا. وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمي ورفعنا صوتنا إلى مسامع أوربا المتمدنة بمطالبنا الحقيقة، وإن الساعة قد آذنت لا محالة وتحتم على أوربا أن تعمل لجلاء الإنجليز عن مصر».

ذهابه إلى الأستانة (أكتوبر سنة ١٨٩٦م)

لم يكن معقولًا أن يطوف المترجم عواصم أوربا ليكسب الأنصار والأعوان لقضية مصر، ولا يذهب إلى الأستانة عاصمة تركيا؛ لأن تركيا كانت في عهد الاحتلال الإنجليزي الدولة الوحيدة التي كانت لا تفتأ تطالب إنجلترا رسميًّا بالجلاء عن مصر، وقد أنفذت إلى مصر مندوبًا ساميًا عنها وهو (أحمد مختار باشا الغازي) مهمته مطالبة الإنجليز بالجلاء، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حي على الاحتلال، فلا غرابة أن يستعين زعيم الجلاء بتركيا، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوربية على إحراج مركز الاحتلال.

قصد إذن الأستانة لأول مرة عن طريق فيينا وبودابست، فوصلها (صبيحة الثلاثاء ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦م)، ونزل بفندق (بيرا بالاس)، وحضر بدعوة من باشكاتب المابين الهمايوني حفلة (السلاملك) وهي حفلة صلاة الجمعة في الجامع الحميدي حيث يصلي السلطان، وفي ذلك اليوم قابل السلطان، فلاطفه في الحديث وأعرب له عن إعجابه به وحسن تمنياته، وفي خلال إقامته بالأستانة أهداه هدية ثمينة؛ وهي علبة سجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة، وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة، وأبدى رغبته في أن يمنحه رتبة أو نيشانًا؛ ولكنه اعتذر عن عدم قبولها حتى لا يتهمه خصومه -وكانوا في مصر كثيرين- بأنه يعمل حبًّا في الظهور ونيل الأوسمة، وقد لامه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته إلى مصر، وأقنعوه بألا يرفض رتبة تمنح له من السلطان؛ لأنهم عالمون بأن الألقاب في مصر والشرق تعظم من شأن الرجل في نظر الناس وتعلي من قدره ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة، فاقتنع المترجم بهذه الحجة كما سيجيء بيانه.

أقام في الأستانة بضعة أيام (من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر) اتصل في خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتبي الصحف الأوربية والأمريكية الشهيرة؛ إذ وفدوا

عليه ليحادثوه في شأن مصر والمسألة المصرية، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمَّة، وكان في أحاديثه الترجمان الصادق للأماني القومية.

كتب مكاتب جريدة (فرنكفور تركورييه) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية-مصطفى كامل في الأستانة) ما تعريبه:

«الأستانة في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦م

تشتغل دوائر الأستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر، وهي المسألة الخطيرة التي لا يبعد أن تظهر قريبًا في مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن، وفضلًا عما لهذه المسألة من الأهمية في أوربا، فإن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائمًا على المسرح السياسي، وذلك مما زاد قيمتها، ولقد حضر إلى الأستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصري الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم، وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذي خلق ليكون خطيب قومه؛ لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين، ولما هو عليه من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير في النفوس، وما في نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه، لم يكد يجيء الأستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قوبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والإكرام، وعلى الأخص في المابين السلطاني، فإنه قوبل بأجمل ما يقابل به سياسي من الحفاوة والتكريم، ومن الصعب أن يتكهن الإنسان في هذا الحين بالنتائج التي تنتج عاجلًا عن عمل (مصطفى كامل)، ولكن مقابلته لرجال السياسة ذوي الحكمة والشأن في العواصم الثلاث (باريس وبرلين وفيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الأمور التي يدرك قيمتها كل إنسان، ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلًا في أحوال مصر والشرق، فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة، وهو يتكلم اللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس، كل ذلك فضلًا عن إحاطته التامة بالعادات

الأوربية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية الكريمة، وهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل إنسان، وإني أقول بكل صراحة ودهشة: إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمنًا طويلًا، ولا يزول تذكارها، أما حرارته في حديثه فهي حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوربا، وهي حرارة كلها وطنية صادقة وإحساسات عالية».

ونشرت جريدة (النيويورك هرالد) الأمريكية الشهيرة حديثًا آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية، سأله فيه المكاتب: ما هي إحساسات المصريين نحو الإنجليز؟ فأجاب المترجم: «إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزي، وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادي النيل، ولذلك نزعوا الآن ما كان لديهم من الثقة في وعود الإنجليز، وباختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لا شرف ولا ذمة في السياسة».

وسأله المكاتب: ما هي رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطني في مصر؟ فقال: «إنَّ الحزب الوطني في مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال؛ فرغائبه هي رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الأمن العام».

ثم سأله المكاتب: لماذا يرغب المصريون في الجلاء والإنجليز يشيعون أنكم في أرغد عيش تحت سلطتهم؟ فقال: «إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولًا؛ لأننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا، ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف، وأن فينا من الحياة ما يكفي لتمتعنا بكل حقوقنا، أما ما يشيعه الإنجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم، فهذا كذب محض يدحضه البرهان؛ إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزابًا حسًّا ومعنى».

أحدث هذان الحديثان تأثيرًا كبيرًا في المحيط السياسي، وذاع اسم الفقيد في أوربا كزعيم لحركة الاستقلال المصري، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحي والشخصيات البارزة إعجابًا بجهاده، وتقديرًا لفضله؛ فمن ذلك ما بعث به إليه الدكتور «هفمان زنيفر» رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألماني؛ إذ قال في كتابه إليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦م):

«سيدي:

إني قرأت أعمالك الأخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعًا عن بلدك العزيز، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطني مخلص ذكي نشيط، فأهنئك بهذه المكانة التي تدهش كل من وقف عليها، وعرف أن سنك هي سنك -كانت سن الفقيد وقتئذ اثنين وعشرين عامًا- وإني أوافقك على وجوب جلاء الإنجليز عن مصر، لا لأن الألمان يكرهونهم كما شاع عنا بلا حق؛ ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولي العام ولمصلحة قناة السويس، بل لمصلحة إنجلترا نفسها.

إنا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء، فادأبوا على الدفاع من سبيله الشرعية، فكل من سار على الدرب وصل، وتقبل يا سيدي خالص احترامي».

الصادق المخلص

هـ. زينفر

وكتب إليه كذلك المسيو «كاني فورشللا» النائب الإيطالي المتطرف الشهير كتابًا هذا تعريبه:

«١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦م

أيها المصري المحترم:

إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بني البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة. إنك لا تقل في نظري عن أي أوربي ذي رأس كبير محنك، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذي لا يقل عن نشاط البخار، فمن باريس نسمعك -وكذلك من برلين وفيينا والأستانة نسمعك- تذكر بلادك، حتى خيل إلينا أن العالم كله معك لأن مسألة مصر هي مسألة العالم كله، وخصوصًا مسألة إيطاليا التي اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها في الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس.

فلا تحرم إيطاليا زيارتك، فإن الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار من أي جنس كانوا. واعتقد أيها الوطني الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا الوطنية على جريبالدي وكافور ومازيني لفي أتم استعداد لمعاونتكم على حل مسألة مصر، إن لم يكن اليوم فغدًا «وليس الغد ببعيد» وتقبل عظيم إخلاصي».

ك. فورشللا

وكتبت جريدة (الأندبندنس بلج) البلجيكية الشهيرة فصلًا مطولًا بعددها الصادر في (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦م) عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للأستانة أيدت فيها مطالب المصريين في الجلاء.

عودته إلى مصر (نوفمبر سنة ١٨٩٦م)

مكث المترجم بالأستانة حتى (١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦م) ثم برحها عائدًا إلى مصر، فوصل العاصمة يوم (١٥ نوفمبر)[1]، فاستقبله الجم الغفير من أصدقائه والمعجبين بجهاده على المحطة مهنئين إياه بسلامة الوصول، شاكرين له حسن بلائه في الدفاع عن قضية الوطن.

(١) «المؤيد» عدد ١٦ نوفمبر سنة (١٨٩٦م).

مكيدة للمترجم

الشروع في تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم في أوربا ترد تباعًا إلى مصر وتنشر الصحف خلاصتها؛ فيغتبط بها المصريون؛ أمَّا الاحتلال وصنائعه فكانوا ينقمون منه رفع صوته في أوربا ضد السياسة البريطانية، وقد دبروا له في غيبته مكيدة حاولوا بها إسكات صوته؛ ذلك أنهم أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد في غيابه، وكان يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذي كان المترجم يقيم في دائرة اختصاصه تبليغ إعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته، حتى إذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الإعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجبًا، وقد سلم الإعلان إلى شيخ الحارة الذي كان منزل المترجم في دائرة عمله، وذهب هذا إلى منزله فعلم أنه غائب في أوربا (وكان يجهل أمر المكيدة)، فآثر أن يستبقي الإعلان لديه حتى يسلمه إلى صاحب الشأن عند عودته من أوربا، ولما عاد إلى مصر تسلم إعلانًا من القسم بأن يذهب إلى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح مفروضًا عليه الاقتراع؛ إذ لم يبد معارضة بعد الإعلان الأول، فلما فطن للمكيدة دعا شيخ الحارة -واسمه الشيخ محمد زيدان- واستكتبه إقرارًا بأنه لم يسلم الإعلان الأول إلى أحد من ذويه، ثم دعاه رئيس مجلس القرعة، فصارحه بأن لا حق لهم في اقتراعه لأنه من حملة الشهادات العليا، فضلًا عن استعداده لدفع البدل العسكري، فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب إلى وزارة الحربية، وهذه كتبت إلى المحافظة لتجنيده بحجة أنه لم يبد معارضة في اقتراعه في الميعاد، فأبرز شهادة شيخ الحارة التي كانت القول الفصل في عدم اتباع الإجراءات التي يقضي بها قانون القرعة.

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة في مصر، وترامت أنباؤها إلى الدوائر الأوربية، فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافًا مفصلًا عنها إلى مركز الشركة في باريس هذا تعريبه:

«إن المحتلين يريدون تجنيد «مصطفى كامل» السياسي الشهير مع أن قوانين البلاد تستثني من القرعة حاملي شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل العسكري وهو متمتع بالصفتين، وإن ما ينتحلونه من أعذار كإعلانه في غيابه وإتمام الإجراءات القانونية ليس بصحيح، وإني أؤكد للرأي العام الأوربي أن هذه المسألة لو تمت على رغبة الإنجليز لأثارت في مصر حركة تكون نتيجتها وبالًا على مصالح دول أوربا؛ لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطني الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر وإخوانه في هذا العهد أقوياء، وغدًا سيقابل محافظ العاصمة الذي شدد في طلبه ليترافع أمامه في قضيته؛ بل في قضية مصر الوطنية بأسرها».

وظهرت جريدة (الجورنال إجبسيان) في صباح اليوم التالي مصدرة بمقالة في هذا الموضوع، حذرت فيها الحكومة والاحتلال مغبة هذا العمل. وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضيحة، وقابل الفقيد المحافظ وألزمه الحجة وأثبت له بشهادة (شيخ الحارة) عدم صحة إعلانه في غيابه، فانتهت الحادثة بالعدول عن اقتراع الفقيد. وكان للشيخ «محمد زيدان» -شيخ الحارة- الفضل الكبير في إحباط مكيدة الحكومة.